

تفسير تدبر القرآن

(تفسير سورة البقرة)

- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: د. أورك زيب الأعظمي²

﴿15﴾

64- تفسير الآية (188)

وقد سبق أن أشرنا إلى أن النهي عن غصب حقوق الأحبّة والأقرباء، وأموال الناس وعقاراتهم جاء قبل الأمر بالصيام وبعده، وهذا يبيّن أهمية الصيام في نظام الشريعة. وهي أن الهدف وراء هذه العبادة ليس إلا إزالة الأمراض مثل الحرص والشح والبخل، وبفضل السيطرة على هذه الأمراض يولد في المرء التقوى التي تجعله محباً للعدل والحذر في شأن الحقوق والمعاملات. فكأنه أرشد إلى تدبير أنجح لمنع النفس عما أمر بالامتناع عنه.

وإن تفكروا شيئاً تجدوا أن ذكر الصيام سبقه التنبيه على الوصية للوارثين بالعدل والإنصاف فيها، وتنفيذها بكل عدل. وبعد ذكر الصيام جاء المنع عن غصب حقوق الآخرين عن طريق شراء الحكام بالرشوة. والسبب وراء ذلك هو أنه كما لا يمكن تقدير الإيمان بالله حقاً إلا إذا كان بريئاً عن أي شوب للشرك فكما شابه شيء من الشرك ضاعت فائدته للحياة فكذلك لا يقدر القانون حقاً إلا إذا كان لتنفيذه حكام عدل وكان المجتمع بريئاً عن مرض الرشوة فلما راجت الرشوة

¹ كاتب ومفسر هندي له مؤلفات عديدة ترجم البعض منها إلى العربية والإنجليزية

² مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المالية الإسلامية، نيو دلهي، الهند

في المجتمع زال القانون وفائدته فإن تفكروا في ضوء ما قلنا تعلموا كأن هناك جانبين لحكم واحد أولهما ذكره قبل الصيام والآخر ذكره بعده، ثم وُضِعَ الصيام بينهما لكي يتضح من نظم الكلام أنّ من يريد أن يسيطر على هذه المطاعم والأهواء فلا يسهل له إزالة هذه العقبة إلا عن طريق تربية نفسه بالصيام. اقرأ ما يلي من الآية في ضوء ما قلنا. قال الله تعالى:

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكَامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾

65- تحقيق الكلمات وتوضيح الآية

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ: المراد من "أكل الأموال" ليس مجرد أكلها بل استخدامها السوء وصرفها عن طريق باطل، والباطل ضدّ للحق. وكما تستخدم كلمة "الحق"، كما ذكرنا، لمعانٍ مختلفة فكذلك تستخدم كلمة "الباطل" لمعانٍ مختلفة فالباطل يستخدم لمعنى "العبث" كما قال تعالى "رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَطَلًا" (سورة آل عمران: 191) وكذلك يعني الباطل ما لا أساس له من العقل أو الفطرة أو الشريعة فمثلاً قال تعالى "وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ" (سورة غافر: 5) وكذا إنه يستخدم للطريقة التي تضادّ العدل والإنصاف والشريعة والمعروف والصدق فتضمن الكلمة كلّ ما اعتبرته الشريعة غير جائز أمثال الكذب والخيانة والغصب والرشوة والربى والقمار والسرقة وما شابهها من المعاملات، وقد جاء الحديث هنا مجملاً فقد فصلّ هذا في مواضع أخرى كما جاء تفصيله في الأحاديث النبوية، وعلى هذا تبني كافة الأمور في الإسلام.

وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكَامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ: الإدلاء يعني إنزال الدلو في البئر لإخراج الماء فقال مثلاً "فَأَدْلَى دَلْوَهُ" (سورة يوسف: 19) ومن هنا عني الحصول على الوسيلة والقربى فكما تبلغ الدلو إلى الماء عن طريق الحبل فكذلك يمكن أن

يبلغ المال صاحبه إلى الحكام فقال: لا يجعلوا المال وسيلة للوصول إلى الحكام فالرشوة ليست طريقًا جائزًا للحصول على المال بل هي الإثم أي الطريق الخطأ والظلم وغصب الحقوق، "وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" أي أنكم تعلمون أنها إثم وسلب للحقوق فقد قرره إثمًا أديانُ العالم كلها ومذاهبه كما أنّ كونه إثمًا أمر بديهي لدى العقل. هذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى، وبما أنها توضيح للجملة الأولى فلم يحتج إلى تكرار "لا" فيها، وقد قمنا ببيان هذا الأسلوب قدر الحاجة حينما فسرنا الآية (42) لهذه السورة.

هذه الآية تسلط الضوء على الرشوة من جوانب مختلفة:

أولها أنها أشنع طريقة لغصب أموال الناس فبعد المنع عن أكل أموال الناس بالباطل خصّها بالذكر، والسبب وراءه كما يتضح أنّ القانون الذي هو أكبر وسيلة لحماية حقوق الناس، تنحصر فائدته كليًا، كما ذكرنا في بداية هذا الفصل، في عدل الحكام وديانتهم فهم المحافظون حقًا على القانون فإن خوّنوا عن أي طريقة فهذا يعني أن الحقوق أصبحت الآن مالا يشتري ويباع فمن يمتلك الأموال فهو يقدر على شرائها والبيهي أنّ الرشوة سلاح لا يخطئ ويفلّ لتخوين الحكام.

وثانيها أنّ دافعًا أشدّ تأثيرًا في رواج الرشوة هو المجتمع فإذا وجد في الناس ميل إلى غصب حقوق الآخرين فهم يختارون سبيل الرشوة لتلبية حاجاتهم وهكذا فهم يعوّدون الحكام على أخذ الرشوة، ولما اعتاد هؤلاء على أخذها فهم يولعون بأخذها إلى حدّ سيففلون عن أداء واجباتهم وهكذا لا يعطون حقوق الناس التي يحرون بها بدون أخذ الرشوة. وعلى هذا فقد منع الإسلام أول ما منع المجتمع عن اختيار هذا السبيل كيلا يخونوا من هو مسؤول عن حمايتهم، وقد تحذّر فيه إلى حدّ أنه لم يرض عن تقديم الهدايا إلى الحكام وبالتالي قبولهم لها كما هو البادي من الأحاديث فإنها أيضًا تمدّ في فتح باب الرشوة.

وثالثها أنّ إثم الرشوة واقع بين لا يخفى على أحد منا فالعقل يشهد ببطلانه، والفطرة تدلّ على زوره، ومعروف العالم حجة على خطأه، وكافة الأديان والمذاهب متحدة على تحريمه وعلى هذا فقال تعالى: "وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ".

66- تفسير الآيات (189-203)

وقد قمنا بتوضيح الجانب الذي روعي في غصب أموال الناس ومن ثم منع عن جعل الرشوة سبباً له في غضون الحديث عن الصيام، والآن يأتي ذكر الحج والجهاد اللذين يتعلقان بالصيام علاقة لا تحتاج إلى توضيح ما.

فالحج نوع من الجهاد، وصفات الصبر التي يتطلبها الجهاد يلدها الصيام على طريقة أحسن فمن خلال ذكر الحج أولاً ذُكر سؤال الناس عن أحكام وآداب الأشهر الحرم التي تختص بالحج والعمرة والتي تعرف بالأشهر الحرم، ولعل هذا السؤال قد ثار في أذهان الناس لأنه لما قرّر الله تعالى بيت الله قبله الناس وأوجب على نفسه أن يحرقه من سيطرة الكفار، كما مضى في البحث عن القبلة تحت الآيات (142-162)، فيلزم هذا مرور المؤمنين بمرحلة الجهاد لإقامة الحج كما يرام ثم ثار العديد من الأسئلة عن هذا الجهاد فمثلاً ما هو الحكم إذا اضطرّ الناس إليه خلال الأشهر الحرم؟ نشأ هذا السؤال لأنّ الحرب كانت محرمة خلال هذه الأشهر منذ فجر تاريخ الدين في هذه الجزيرة وقد كان العرب يحترمونها في جاهليتهم كما أمر الإسلام باحترامها، وكذا ثار هذا السؤال: إذا اضطرّ الناس إلى الحرب في الحرم وحدوده فماذا يفعل المؤمنون؟ ثار هذا السؤال لأنه لا يجوز وحتى الضرر بحيوان في حدود الحرم فماذا عن الحرب والقتال فيها، وتلك الحرمة بقيت منذ العصر السحيق، وكذا حدث السؤال عن الإنفاق بالنسبة للجهاد لأنّ الجهاد لن يمكن مادام الناس لا يرضون عن التضحية بأموالهم بجانب التضحية بأنفسهم. والبدوي أنّ هذا الإنفاق زائد على الإنفاق الذي قد مضى ذكره فكأن قضية الحج قد جمعت بين دفتيها أسئلة عديدة عن الجهاد والأشهر الحرم

والإنفاق بجانب القضايا والمسائل المتعلقة بالحج. ولما يرى رجل لا يعتاد على إمعان النظر أن هذه الأسئلة مشتبه بعضها ببعض فيشعر بأن الحديث لا يرتبط ببعضه البعض ولكنه إذا وضع أحد أمام عينيه ذاك العصر الذي نزل فيه هذه الأحكام كلها ثم يتفكر في السلسلة بأسرها فيرى جلياً أن هذه الأمور كلها حلقات سلسلة ترتبط بعضها ببعض. اتل الآيات التالية في ضوء هذا المدخل:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَقِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٢٩﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣١﴾ وَتَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٣٢﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِيهِ الْآلُوبُ ﴿١٣٧﴾﴾ لَيْسَ

عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٧٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿١٨٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٨١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٨٢﴾ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُحْشَرُونَ ﴿١٨٣﴾

67- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ وَاتُّوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٣﴾

أهلة جمع هلال وهو يعني القمر في بدايته كما يراد منه الشهر خصوصاً حينما يأتي جمعاً فاستخدامه للشهر عام شائع، ودخول لام التعريف على الأهلة دليل على أن السؤال كان عن أشهر خاصة كما يبدو من النظر في السياق أن هذا السؤال كان عن الأشهر الحرم وأحكامها وآدابها فما جاء في الآيات التالية من الرد على هذا السؤال يتعلق كله بالحج والأشهر الحرم. وبما أن القرآن الكريم ينقل الأسئلة بصورة موجزة، كما بينا، فظن عامة المفسرين أن هذا السؤال يتعلق بزيادة القمر ونقصه، ولكن هذا الظن ليس بصحيح، ولبطالانه وجوه نذكر بعضها فيما يلي:

أولها أن مثل هذا السؤال عن علم الفلك يخالف ذوق العرب وعاداتهم المعروفة فقد كان العرب يقرّون بأن الشمس والقمر مما صنعه الله وهما مسخران بأمره فلم احتاجوا إلى إثارة هذا السؤال التافه بأن القمر يزيد وينقص فقد كانوا يعرفون أن هذا السؤال لا يقدر على دحض ما يقوله النبي فهو يستطيع بأن

يجيب عليه بسهولة بأنه يزيد أو ينقص بأمر من الله وهذا دليل قوي على كونه مسخرًا بأمر رب. وقد مضى هذا الرد قبل هذا في السور المكية بمختلف الأساليب بل كانوا يرون الدلائل التي بيّنها إبراهيم عليه السلام على توحيد الله عن طريق طلوع وغروب القمر فماذا يعنهم سؤال هذا النوع؟

وثانيها أنّ السياق يدلّ على أنّ السؤال لم يطرح من قبل عامة العرب أو أهل الكتاب بل كان قد أثاره المسلمون أنفسهم فسؤال المسلمين عن زيادة أو نقص القمر تافه للغاية ومستبعد للنهاية فإن كان لهم أن يسألوا فليسألوا عن أحكام وآداب الأشهر لا أن يطرحوا مثل هذا السؤال التافه اللايحي.

وثالثها أنه لو كان السؤال عن زيادة أو نقص القمر لكان هكذا "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْهَلَالِ" لا أن "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ" فإن معناها العام، كما ذكرنا، سيكون أنهم يسألون عن الأشهر الخاصة.

ورابعها أنّ ما وجّهه القرآن إليهم من الردود عليها بعدما نقلها يتعلق كلها، كما سيبدو من الآيات التالية، بأحكام وآداب الحج والأشهر الحرم فلا يوجد فيها أي إشارة إلى السبب في زيادة أو نقص القمر فإن وهبنا أنّ القرآن الكريم لم يعبأ بسؤالهم هذا فبصرف النظر عنه أفادهم بأشياء عن الأشهر فلتكن هناك إشارة على الأقل إلى منع الناس عن السؤال عن الأشياء التافهة كما جاء التنبيه على مثل هذه الأشياء في غير هذا الموضع.

وبالجملة فهذا السؤال لا يتعلق، عندنا، بزيادة أو نقص القمر، بل هو، كما ذكرنا، يتعلق بالأشهر الحرم التي ما زالت محرّمة منذ زمن إبراهيم عليه السلام والتي قد مُنِعَ فيها عن الحرب والقتال حتى في العصر الجاهلي. ولما تقرّرت الكعبة قبلة المؤمنين ووجب أن يتم تحريرها عن سيطرة الكفار فماذا تكون هي الحدود والقيود لاحترامها؟ فذكر القرآن هذا السؤال بإيجاز ولكن ردّ عليه بالتفصيل، وقد أشرنا تحت الآية (186) أنّ من أساليب القرآن أنه ينقل أسئلة الناس بإيجاز وهذا ما

تقتضيه البلاغة فإن السؤال يتضح بنفسه من الردّ الذي يتبعه فما هي الحاجة إلى تفصيل السؤال؟ وهذا هو أسلوب محمود لدى العرب حتى أن المتضلعين من اللغات الأخرى قد سلكوا هذا الطريق. ولكن نتعجب أنّ هذا الإيجاز القرآني قد أقلق المفسرين عن التأويل فقد حاول معظمهم أن يحدّدوا نوعية السؤال بالسؤال ذاته بدلاً من استخراجه من الردّ عليه، وهكذا فقد خبطوا عشياً في السؤال والرد عليه ولكن هذا ليس من عجز القرآن بل هو عجز أرباب التأويل أنفسهم.

قُلْ هِيَ مَوْقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ: هذا جزء من الرد على السؤال وذلك أنّ هذه الأشهر قد حدّدت لرفاهية الناس ولاسيما لتسهيلات الحج والعمرة، وقد أوضحنا من قبل في الحديث عن القبلة أنّ الأشهر الحرم لم تكن مهمّة لدى العرب نظراً لعبادتهم فحسب بل كانت فعاليتهم التجارية والاقتصادية جلياً منحصرة في هذه الأشهر فقد كان العرب يقضون السنة كلها في القتال والحرب وعلى هذا فقد كان نشاطهم لأموال التجارة عاطلاً في الغالب فكان هذا من فضل الأشهر الحرم أن كان يعمّهم الأمن والأمان خلال هذه الأشهر الأربعة فقد كانوا يتباركون بالحج والعمرة ويحضرون أسواق داخل البلاد وخارجها بدون أيّ مخاطر ويتبادلون بالسلع والبضائع لاسيما قريش فقد كانت هذه الأشهر لأسواقهم مثل شهر الربيع فقد كان العرب كلهم يتوجهون نحوهم في هذه الأشهر ويتحوّل هذا الوادي غير ذي الزرع إلى مركز للتجارة. وقد ذكر القرآن في غير موضع منه بركات الكعبة وأشهرها الحرم المادية كما أشار إلى بركاتها الروحية ومن ثمّ نبّه قريشاً على منته الكبرى هذه. وإلى هذه الحقيقة تشير كلمات "مَوْقِيتٌ لِلنَّاسِ" أي أنّ هذه الأشهر الحرم تطوي بين جنبها العديد من الفوائد والمصالح لعامة الناس فليتمنّ احترامها. وبعد ذكر فائدتها العامة هذه أشار إلى فائدتها الخاصة --- الحج --- أي هذه هي الأشهر الحرم التي يتمتع فيها الناس من بركات سنة إبراهيم هذه بكل أمن وأمان فهذا الجانب أيضاً يقتضي منهم أن يحترموها.

وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ: هذا إصلاح تجديدي وتنبيه مع الحج مثلما مضى في الآية (177) مع مبادئ الدين بأن "لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ ---" وهنا قال "وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى ---". وهذا من عامة أمراض الأمم أنهم قد وضعوا واجبات الدين وفرائضه وراء ظهورهم شيئاً فشيئاً ثم حاولوا أن يسدّوا ذاك النقص بالبدع والتقاليد، ونفس الشيء حدث مع العرب فإنهم كانوا يحجون البيت في الجاهلية كذلك ولكنهم أبعدوه عن روحه الأصلية ومزجوا بها العديد من الأوهام والتقاليد ومما أحدثوا من البدع عن الحج أنهم إذا احتاجوا إلى الدخول في البيوت بعدما أحرّموا أو لما رجعوا عن الحج إلى بيوتهم فلم يكونوا يدخلونها من الأبواب التي كانوا يدخلونها من قبل بل كانوا يدخلونها من خلفها. ولعل الوهم وراء هذه البدعة العجيبة أنّ الأبواب التي خرجوا منها حاملين أوزار الأخطاء كيف يمكن دخولهم منها وهم مبرّعون عنها. هذا الوهم مثل الوهم الذي ركبه حين الطواف فقد كان العديد من العرب يطوفون بالبيت العتيق وهم عراة. ولعلمهم ظنوا أنّ الملابس التي تزيّن الأجساد لن يشوب شيء منها عملية الزهد والرهبانية التي يشهدونها خلال الطواف حول البيت.

فردّ القرآن على هذه البدعة وقال إن يدخلوا البيوت من أبوابها فلا يؤثر هذا في التقوى إلا أنهم إذا أرادوا الفلاح في الآخرة ومرضاة الرب فليرعوا حدوده ويخافوه دائماً فإنّ الهدف وراء الحج ليس إلا ما مضى.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩﴾: في هذه الآية سمح المسلمون بأنهم إذا احتاجوا إلى القتال عن الحج فليخضوه مدافعين في الأشهر الحرم إلا أنهم غير مسموحين باعتداء الحدود أي لا يجوز لهم أن يبادروا بالحرب في الأشهر الحرم ولا أن يعتدوا الحدود خلال الدفاع إلا أنهم مسموحون بالدفاع في الأشهر الحرم كان أو في الحرم بل هذا ما يقتضيه حرمتها ذاتها وسيأتي تفصيل هذه النكتة في الآيات القادمة.

وقد احتيج إلى توضيح هذا الأمر عن الحج لأنّ الحرم كان تحت سيطرة المشركين حتى الآن فمن الممكن أنّ المسلمين إذا توجهوا نحو الحرم للحج فيصدهم الكفار فتأتي نوبة الحرب من خلاله لاسيما أنه لما اتضح للمشركين أنّ المسلمين قد قرروا بيت الله قبلتهم وأنهم يدعون أنهم هم الوارثون لهذا البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام وفي مثل هذه الظروف وجب أن يعطى المسلمون إرشادات لازمة عن أحكام وآداب الحرم والأشهر الحرم، تهديهم إذا احتاجوا إليها، ولنلاحظ هنا أنّ العرب كلهم كانوا ذوي حساسية بالغة وغير شديدة عن حرمة الحرم والأشهر الحرم فالقتال فيها كان عدواناً كبيراً لدى كل منهم فما أمكن للمسلمين أن يستعدوا للحرب في حدوده وفي أثناء الأشهر الحرم ولو للدفاع فحسب إلا أن يرشدهم القرآن إلى ذلك.

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾

أي يجب عليكم حج بيت الله وأنتم تستحقون ذلك لأنكم ورثة ملة إبراهيم الحق وعلى هذا لو صدكم قريش عن التمتع من حقكم فواجهوهم واقتلوهم حيث تثقفونهم ولو وقع هذا القتال في حدود الحرم والأشهر الحرم، وأخرجوهم من مكة التي أخرجوكم منها فإن تراث إبراهيم وإسماعيل لا يصل إلى من هم أبناؤهما بل إلى من يتبع ملتتهما كما قال إبراهيم نفسه، وهذه الدرجة تحتلونها ولا يحتلونها هم أنفسهم فهم المستحقون أن يخرجوا من هذا البيت لا أنتم.

وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ: الفتنة هنا تعني هي المحاولة لصرف أحد عن دينه بالجبر والظلم ويقال لها بالإنجليزية Persecution وقد كثر استعمالها بهذا المعنى فقال تعالى مثلاً: "إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾" (سورة البروج: 10) وقال أيضاً: "عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ

أَنْ يَفْتِنَهُمْ" (سورة يونس: 83) وكذا قال "ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا" (سورة النحل: 110).

وما سمح للمسلمين أن يقاتلوا مشركي قريش حتى أن يقاتلوهم في حدود الحرم والأشهر إلا إذا قاتلوهم فيها. وإخراجهم من حدود مكة يستدل عليه بهذه الفقرة وهي تعني ولو أن القتال في الحرم وحدوده والأشهر الحرم شيء قبيح للغاية ولكن البيت الذي يمارس فيه الظلم على عباد الله لمجرد أنهم آمنوا به فهذا أشد من القتل ولأجل القضاء على هذه الفتنة سمحتم بأن تعاقبوا الكفار مثل ما عوقبتهم إذا اضطرتهم إلى القتال وتقاتلوهم إذا واجهوكم وهذا ليس بمزيل لحرمة الحرم والأشهر الحرم.

وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ؛ هذا تأكيد على أن لا يبادر المسلمون بالقتال في حدود الحرم. نعم إذا شنت الغارة عليهم لمنعهم عن التقرب إلى المسجد الحرام فيردوا عليهم مثلما فعلوا فاحترام المسجد الحرام مسؤولية يشترك فيها الثقلان فإن يضع الكفار هذه الحرمة وراء ظهورهم في عداوتهم مع المسلمين فهم أيضاً لا يستحقون أن يراعاهم المسلمون شيئاً على هذه الحرمة فهذا جزاء ما ارتكبه "كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ".

فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٧﴾ والانتفاء هنا لا يعني الامتناع عن الحرب فإنهم لو امتنعوا عن الحرب فينبغي للمسلمين أن يمهلوهم ولا يقاتلوهم فهذا لا يعني أن الله يغفر لهم ولما ارتكبه من الكفر والفسق. وعلى هذا فالمراد من الامتناع هو الامتناع عن عنادهم وظلمهم (Persecution) اللذين ارتكبهما قريش الذين قد أخرجوا المسلمين عن بيوتهم وكذا الامتناع عن صد المسلمين عن بيت الله، الذي لم يستحقوه البتة.

فإن تذكر مباحث هذه السورة (من مبحث القبلة إلى هنا) فلا يخفى عليك أن هذا المبحث كله لا يتعلق بعامة الكفار بل هو يتعلق بالخواص منهم فلم يكن

النزاع بينهم وبين المسلمين شيئاً مؤقتاً لأمر تافه بل كان هذا لتولي أمور بيت الله. فقد كان القرآن يدعي أن البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام لا يستحق تولّيه إلا المؤمنون فالكفار والمشركون هم الذين قد حوّلوا هذا البيت عن هدفه المبدئي إلى مركز للكفر والشرك، وكذا ادعى القرآن أن النبي الذي يمكن به إحياء وإتمام أهداف هذا البيت طبقاً لدعاء إبراهيم ومن ثم وعد الله عليه، هو محمد العربي ﷺ فقد وُعدَ به فلا بد من أن يتحرر هذا البيت من سيطرة الكفار والمشركين ويتطهر من نجاسة الكفر والشرك ويكون مركزاً لملة إبراهيم الإسلام وقبله لكافة المؤمنين فالبراهين الشديدة والتأكيد والقوة التي استخدمت في تقديم هذه الدعوى في هذه السورة كلها لا تبقي مكاناً لأي هوانة وهوانة بل يمكن أن يصرح أنّ الهدف الأصلي وراء بعثة النبي محمد كان تحرير بيت الله عن سيطرة الكفار وتطهيره عن نجاسة الكفر والشرك وإعادة تقريره مركزاً للتوحيد والإسلام والملة المسلمة، والبلوغ إلى هذا الهدف كأنه كان هو المهمة النهائية لبعثة النبي محمد ﷺ فإن تفكّر في ضوء ما قلنا يتضح لك أن "فَإِنْ أَنْتَهُوَ" لا يعني مجرد امتناع الكفار عن الحرب بل يعني أن ينتهوا عن كافة الأعمال والحركات المعارضة التي يقومون بها اليوم لمعارضة هذه الدعوة للحق، ويكونوا من مؤيديه ومعضّديه فإن اختاروا هذا السبيل فيغفر لكافة جرائمهم التي ارتكبوها حتى الآن، ونفس الشيء قيل بتوجيه الخطاب إلى الكفار في سورة الأنفال:

"قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٨﴾ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كُفُّوا لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوَ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٩﴾".

وقد تم توضيح هذا الأمر في سورة التوبة بأن الكفار لا يستحقون شيئاً في تولّي أمور بيت الله فلا يستحقها إلا المسلمون:

"مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾".

وهذا الجانب الخاص الذي أمر به كفار قريش بدلاً من عامة الكفار بأنهم لا هودة لهم ما لم يتوبوا ثم يقيموا الصلوة ويؤتوا الزكاة كما قال تعالى:

"فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾" (سورة التوبة)

وهنا نكتفي بهذه الإشارات المجملية وسنقوم بالبحث المشبع عن قضية الكفار هذه في سورة التوبة.

وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنتَهُوا فَلَا عُدُونِ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٣٧﴾

هذه الآية قد قامت بالتوضيح المزيد لما مضى في الآية السابقة من البحث بأن لا تنتهي الحرب ضد الكفار حتى لا يكون شيء من الفتنة في أرض الحرم هذه ولا يكون سوى دين الله فيها فقد بني هذا البيت لعبادة الله الواحد فحسب فلا مجال فيه لدين آخر سوى دين الله. والآن سيكون هذا طبق دعاء إبراهيم ووعد الله معه أيصبر الكفار عليه أم لا يصبرون، وقال نفس الشيء في سورة الصف كما يلي:

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١٠١﴾

ولفهم صحيح موقع "وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ" ولتقدير تأكيده وقوته يجب علينا أن نفهم بالإيجاز سنة الله التي أجراها الله بالنسبة لرسوله وهي أن الله كلما يرسل رسوله إلى قوم ما يكون ذلك الرسول حجة كاملة نهائية عليهم من قبله تعالى، ولا تبقى لهم بعدها حاجة إلى أي حجة أخرى فإذا لم يؤمنوا بعدها وعكفوا على

تكذيب الرسول وعداوة الحق فالله يحكم بفنائهم سواء نزل عليهم عذاب من الله أو أعوان الحق وأنصار ذلك الرسول، وسواء وقع هذا في حياة الرسول أو بعد مماته فقولته تعالى "لَأَعْلِيَنَّ أَنَا وَرُسُلِي" (سورة المجادلة: 21) و"جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا" (سورة الإسراء) ونظائرها من الآيات تشير إلى هذه السنة الربانية، وقد ذكر قانون خاص بظهوره في القرآن، ستأتي مناسبات غير هذه نفصل فيها هذا القانون.¹

فتشير هذه الآية إلى تلك السنة الربانية بأن هدف هذا الرسول النهائي يتم بحيث لا يبقى على أرض الحرم هذه دين سوى الدين الحق وعلى هذا فقد ترك القرآن للكفار العرب الذين أرسل إليهم النبي محمد مباشرة والذين كانوا يغصبون سيطرة على بيت الله، ترك لهم سبيلين؛ إما أن يعتنقوا الإسلام أو يستعدوا للقتال فلم يسمح بالجزية كما سمح لغيرهم من الكفار، وعلى هذا فلما حدث ما كان يتطلبه إتمام الحجة شَنَّ النبي الغارة على مكة وسيطر على بيت الله وطهره عن كافة أدناس الكفر والشرك وأعلن بـ"جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ".

وكذا وجب لتحرير الحرم عن سيطرة الكفر والشرك أن تصان هذه المنطقة كلها التي يقع فيها هذا الحرم عن السيطرة أو المداخلة غير الإسلامية ولذلك فقد أمر النبي ﷺ عن الجزيرة العربية كلها أن "لا يجتمع فيه دينان" وحتى قد أوصى في آخر أيامه بأن ينفي اليهود والنصارى عن هذه الأرض، الوصية التي عمل عليها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في زمن خلافته، وكان هذا التدبير أمراً لا بد منه للصيانة السياسية لمركز الإسلام، وهذا مما يجب على المسلمين أن يكونوا يقظين لصيانة هذا البيت كل ثانية من حياتهم ولا يدعوا أي قوة غير إسلامية أن تثبت أقدامها في هذه الأرض.

¹ لنعلم أن السنة التي أشرت إليها هنا هي تختص بالرسول فهي لا تختص بالأنبياء الذين لم يكونوا إلا أنبياء، وأما الفرق بين الرسول والنبي فسأذكره في موقع يناسبه.

فَإِنْ أَنتَهَوْا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ: "أَنْتَهُوا" يعني، عندنا، ما قد أشرنا إليه من قبل فالعدوان أصلاً يعنى التعدي والبغي ولكن هذه الكلمة قد استخدمت هنا لمجرد "الإقدام" (Action) فقد تستخدم بعض الكلمات بالعربية لمجرد المجانسة والمشابهة فلا يتعين مفهومها إلا بموقع الكلام فمثلاً يقال "دناهم كما دانوا" ف"دانوا" هنا استخدمت لمجرد المشابهة بـ "دناهم" وإلا فكان الموقع يقتضي "فعلوا" أو كلمة مثلها أو كما قال تعالى: "وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا" (سورة الشورى: 40) فيعلم كل منا أنَّ جزاء سيئة ليس بسيئة ولكن لمجرد المجانسة استخدمت "سيئة" هنا كذا جاء في الآية القادمة "فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ يَمِثِلْ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ" (سورة البقرة: 140) وكذا استخدام كلمة "اعتدوا" لمقابل "اعتدى" جاء لمجرد المشابهة ولا غير، ونظراً لهذا الأسلوب العربي الشهير فقد استخدمت كلمة "عدوان" ولكن المراد منها مجرد "الإقدام" وهذا يعني أنهم إذا رجعوا عن فعاليتهم السيئة واختاروا سبيل الإسلام فلا يجوزون على ما ارتكبوه سالفًا ولا يجزى إلا من اعتكف على كفره وشركه، وظلمه وعدوانه.

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ يَمِثِلْ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾

وهذا دليل على ما ذكر سابقاً من الأحكام وهذا يعني أنه ولو أنَّ القتال في الأشهر الحرم أو حدود الحرم جريمة كبرى ولكنه حينما لا يرعى الكفار هذه الحرمة بشأنكم فلکم الإجازة أن تحرموهم عنها على أساس القصاص فنفس كل امرئ محترمة لدى الشريعة ولكنه حينما لا يحترم أحد نفس الآخر فيقتله فهو يحرم نفسه جزاءً لما فعل وهكذا الأمر مع حرمة الأشهر الحرم وحدود الحرم فإن لم يرعها الكفار فلا بأس بأن يحرمهم المسلمون هذه الحرمة فيقاتلوهم مثلما قاتلوهم ومثله مثل القصاص فمن يقتل أحدًا بغير الحق فهو سيقتل جزاءً لما فعل فالمسلمون مسموحون للقتال ضدهم ولكن يجب عليهم أن لا يفوتهم

التقوى فلا يبادورا بهتك حرمة حدّ من حدود الله تعالى فلا ينصر الله إلا من يرى هذه الحدود فمن يتعدى حدود الله فهو المجزيّ مثلما فعل.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤١﴾

الأمر بهذا الإنفاق، كما أشرنا آنفاً، للجهد الذي أمر به هنا فالجهد يطلب من المقابل التضحية بالمال كما يقتضي التضحية بالنفس وعلى هذا فقد ذكر القرآن الإنفاق حيثما ذكر الجهاد والقتال فقال مثلاً: "وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (سورة التوبة: 41).

وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ: فكلمة "بِأَيْدِيكُمْ" تصوّر رجلاً يثور في البحر أو الغار من الأعلى إلى الأسفل ناشراً يديه وقد استخدم هذا الأسلوب بعض شعراء العرب. والمعنى أنّ من يتخلف في التضحية بالنفس والمال في سبيل الله فهم، ولو بديهياً، يبعدون أنفسهم عن الأخطار ولكن في الواقع إنهم يلقون أنفسهم في هوة الهلاك فحياة الإنسان أو بقاءه ينحصران في التضحية في سبيل الله لا في الصيانة والحماية، وقد أكثر القرآن الإشارة إليه في غير موضع منه فقال في سورة التوبة وهو يذكر المنافقين:

"وَسَيَحْلِقُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾".

فكلمات "يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ" تشير إلى هذا البخل والجبانة، الأمر الذي أكّد على الحذر منه في الفقرة "وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ". فبدا من هذا أنما يظنه الحريص على الحياة والمال فلاحاً هو الموت والهلكة عند الله.

وكذا عطف "وأحسنوا" على "أنفقوا"، والإحسان هنا تعني القيام بفعل جيداً أي أنفقوا في سبيل الله بسخاء ورضى وأنفقوا ما هو عزيز وحبیب لديكم. وقد ركّز القرآن على هذا الإحسان في شأن الإنفاق في غير موضع منه فقال تعالى مثلاً:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغِشُّوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَمِيدٌ ﴿٣٧﴾". (سورة البقرة)

والإنفاق لا يبلغ درجة الإحسان ما لم يشبه هذه العاطفة والحذر لله تعالى فאלله لا يحتاج إلى أموالنا فهو حميد وغني إلا أننا نحتاج إلى جوده وسخائه فإن يطلب منا الإنفاق فلا لنفسه بل لأنفسنا لكي يمتحن به إخلاصنا ويتقبل أموالنا فيرجعها إلينا يوم القيامة في صورة خزينة خالدة لا تفنى ولا تنقضي.

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣٨﴾

وكما أن الصلوات المكتوبة يتبعها السنن والنوافل التي تهيح في الأنفس اليقظة في الطباع والاستعداد لها وإن نقص منها شيء فيسده هذه النوافل فكذلك أن العمرة مثل ممارسة تدريبية للحج فهي تخلق في الأنفس استعداداً للحج كما هي ربما تسد ما نقص في الأخير فهي باعتبار معناها اللغوي تشير إلى التعمير والضوء والاستعمار، الأمر الذي يبدو منه أن المراد منها جلاء بيت الله وحياة القلوب ويقظتها، وكلاهما يلزم أحدهما الآخر.

وفي "وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ" تم التركيز على كلمة "لله" وهذا يعني إذا سعدتم بالحج والعمرة بعد المرور بمراحل الحرب والقتال فأتموهما لله وحده، وقد مسّت الحاجة إلى هذا التأكيد والتنبيه لأن العرب ولو كانوا يؤدّون الحج والعمرة قبل الإسلام ولكنهم لم يكونوا يفعلونها لله وحده بل قد اشتركها آلهتهم الباطلة التي قد نصبوا

أوثانها وتمثيلها في بيت الله كما جاء في مواضع أخرى لمناسك الحج، ولذا فلما دخلوا الحرم للصلوة أو أرادوها للحج والعمرة فلم يريدوا عبادة الله وحده بل أرادوا رضى تلك الالهة وعبادتها فكانوا يعبدونها ويقدمون النذور إليها ويضخون لها، وبما أن هذه الظروف كانت سائدة خلال نزول الآية التي نحن بصدد تفسيرها فقد أكد المسلمون بأنكم كلما تريدوا الحج والعمرة فلا تفعلوهما إلا لله وحده وحادراً أن يمسهما شيء من الشرك والبدعة. وقد أشير إلى هذه الحقيقة في سورة الكوثر كذلك فقال تعالى "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾" وقد أثبت بصراحة، الإمام الفراهي في تفسيره لسورة الكوثر أن المراد من الكوثر هنا الكعبة المشرفة التي هي صورة مجاز في الدنيا عن حوض الكوثر يوم القيامة، وقد تم التأكيد على الصلوة والنحر لله لأن الصلوة والنحر كليهما كان يتم لغير الله في الغالب.

وهناك جانب آخر للتأكيد على "لله" وهو أن الحج والعمرة للعرب كانا بمنزلة التجارة أكثر من كونهما بمنزلة العبادة فقد بقيا لديهم مثل الأسواق وقد جهلوا عن الأهداف التي بنى لها إبراهيم هذا البيت، وعلى هذا فقد أوجدوا النسئ فجعلوا أشهر الحج شمسية بدلاً من أنها كانت قمرية لكي تقع هذه الأشهر في زمن يوافق وتجارهم فقول "لله" ينبههم عن الهدف الأساسي وراء الحج والعمرة بأن هذه العبادات قد تم تقريرها للحصول على رضى الله وتربية التقوى لا لعقد الحفلات وفعاليات التجارة فوجهوا الله خلاف ما يفعله الكفار والمشركون. وما أعطي المسلمون من رخصة محدّدة للتمتع من الفوائد التجارية يأتي ذكرها فيما بعد.

فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ: الإحصار يعني الإحاطة والمراد هنا من الإحاطة هي الإحاطة من قبل الأعداء وإليه الإشارة في فقرة "فَإِذَا أَمِنْتُمْ" ويعضده الظروف وذلك لأن مشركي قريش كانوا يسيطرون على مكة زمن نزول الآيات ولم يخرجوا المسلمين منه فحسب بل لم يكونوا راضين عن أن يسمحوهم للرجوع إليها. وكان مما يخاف أنه إذا توجه المسلمون نحو مكة للحج أو العمرة فيصدهم هؤلاء

المشركون بكل عددهم وعدتهم، وقد حدث كما خيف فلما أراد النبي وأصحابه حين صلح الحديبية للعمرة قد صدّهم الكفار بكل قوتهم وقد كان هذا الوضع يقتضي أن يرشد المسلمون لمواجهة هذا الخطر المتوقع إلى أنه لو أحاط بكم الأعداء وصعب لكم الوصول إلى بيت الله فضحّوا بما تيسّر لكم وحيثما أحيط بكم، ونظرًا لهذا الإرشاد فقد حلّ النبي الإحرام بالحديبية.

وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ: والمحل، كما صرح في لسان العرب، ظرف من حلّ يحلّ وهو يستخدم للزمان والمكان كليهما والمعنى أن لا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله ويتمّوا نذوركم. ومن البديهي أن لتبليغ الهدي محله صورتين مختلفتين في حالي الأمن والإحصار وقد ثبت كلاهما من عمل النبي ﷺ فقد عمل النبي بالحديبية على صورة الإحصار وثم اختار بمكة ما هو يعمّ الحج والعمرة في صورة الأمن.

ولنلاحظ هنا أنّ الأمن والإحصار اللذين ذكرا هنا يتعلقان بالعدو وأما الطوارئ التي تصيب المرء من مثل المرض أو الأذى فحكمهما ليس أصلاً بل هو يستخرج من هنا تبعاً وهو يتعلق بالاجتهاد.

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ: فإن حلق أحد رأسه قبل الهدي فعليه أن يؤدي الكفارة، وقد بين القرآن هذه الصور الثلاث للكفارة موجزاً وهي الصيام أو الصدقة أو النسك وقد قام النبي ﷺ بتفصيل هذا الإجمال بأن يصوم لثلاثة أيام أو يطعم ستة مساكين أو يذبح شاة على الأقل.

فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ: هذه رخصة للحجاج القادمين من خارج مكة فقد كانوا يرون أن الحج والعمرة في رحلة واحدة إثم ولو أن هذا كان سهلاً لمن يقطن الحرم

وضواحيه ولكن الحجاج الذين كانوا يأتون من الخارج كان هذا صعباً لهم ومشكلاً عليهم فقد أَرخص الله لهم بأن يجوز لهم أن يحجّوا ويعتَمروا معاً في رحلة واحدة بحيث أن يفرغوا عن قيود الإحرام للعمرة أولاً وثم يحرموا من جديد للحج في أيامه ويؤدوا مناسكه إلا أن عليهم أن يضحّوا إن فعلوا ذلك وإن لم يتوقّر لهم الذبح فليصوموا لعشرة أيام؛ ثلاثة في أيام الحج وسبعة بعد الرجوع عن مكة.

وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ: وبعد تفصيل الأحكام والإرشادات ذكر روح هذه الأحكام بأن الهدف الأصلي وراء هذه الأحكام هي التقوى فهذه هي غايتهم وهي التي تنفخ فيهم الحيوية فإن لم يضعها الإنسان أمام عينيه فلا أن يؤدي حقها ولا أن يحصل على شيء منها بل سيقضي الحياة كلها في عقد الآمال الكاذبة مع الله وإعطاء نفسه زيادة لا تسوغ ولا تسمح، وال حال أنه كما أن قوانين الله الطبيعية واضحة في نتائجها فكذلك قوانينه الخلقية والشرعية بيّنة في نتائجها.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿٣٧﴾

ويدلّ الموقع على أن كلمة الحج هنا استخدمت لكلا الحجين؛ الحج الأكبر والحج الأصغر أي العمرة، وقد أشرنا إلى هذا النوع الخاص لاستخدام الكلمات حين البحث عن كلمة القصاص.

والمراد من الأشهر المعلومات هي الإشارة إلى كونها معيّنة ومحدّدة مثل الأيام المحدودات فهذه ليست بمدة غير معيّنة ولا محدّدة بأن يقلق من يريد الحج والعمرة من تصوّر قيودهما فهذه أشهر محدودة ومعيّنة فمن يرد الحج أو العمرة فيها فعليه أن يعتني بقيودها ويجتنب عن الشهوة والعدوان والقتال وما شابهها من الآثام ويحاول أن يتناول أكثر فأكثر من الحسنات والخيرات، ولو أن الإنسان يضطر في هذا الجهاد إلى التضحية بعواطفه وأهوائه ولكنه ينبغي له أن لا تخوّفه

هذه الأشياء فليعلم أنما يعمله من الحسنات صغيرة كانت أو كبيرة كلها معلومة لله تعالى وهو سيجزيه يومًا ما.

وقد قام هنا بنفي ثلاثة أشياء؛ الرفث والفسوق والجدال فالمراد من الرفث هي الأقوال المشتهية وقد مضى تحقيق هذه الكلمة من قبل، والمراد من الفسوق هو عصيان الله وأما الجدال فالمراد منه القتال فيما بينهم.

وبالمنع عن هذه الأشياء الثلاثة تغلق كافة أبواب الدوافع النفسية التي يدخل من خلالها المرء في الإثم. وهناك أوجه خاصة للمنع التام عن هذه الأشياء وهي كما يلي: أولها أن العبادة في الإسلام توصل المرء إلى الحد النهائي لترك الدنيا والزهد، الذي يقتضي الإسلام التعرف عليه والذي يجب للتربية والتركية، ومن ثم تبتدئ حدود الرهبانية التي قد منع الإسلام عن الدخول فيها.

وثانيها أن قيود الإحرام تزيد في المرء الرغبة في هذه الأشياء وهذا من طبيعة الإنسان أنه حريص على ما منع، وأن الشيطان يغتنم الفرصة من هذا الجانب الضعيف للمرء.

وثالثها أن المرء يجد مثل هذه الفرص لكونه في حالة السفر فإن لم يكن المرء حذرًا في كل خطوة منه فيمكن أن تزل قدماه.

وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى: ولو فككنا أجزاء الكلام لكان هكذا "وتزودوا التقوى فإن خير الزاد التقوى" أي إذا خرجتم للرحلة على الحج فلتزودوا بالتقوى فإن التقوى خير زاد وأفضله فقد حذف كلمة التقوى في المكان الأول نظرًا للإيجاز والبلاغة فإن إظهارها كان لازمًا في المكان الثاني فإن ذكرت في المكان الأول لأمكن أن يكون الكلام ذا عيب لتكرارها، والقرآن بريء من كل عيب.

ولا يرى معظم المفسرين أنه قد حذفت هنا كلمة التقوى فهم يرون أن "تزودوا" جاء مؤكدًا على جمع الزاد للتقوى وذلك لأن معظم العرب كانوا يبدؤون السفر

بدون أي زاد فكانوا يقلقون كما كانوا يسببون القلق للآخرين وعلى هذا فقد أرشد مثل هؤلاء الناس إلى أن يزودوا حينما أرادوا الخروج للحج.

ولو أن هذا صحيح تمامًا أن جمع الزاد للحج لازم ومقدم على كل شيء بل لم يفرض الحج إلا على من يستطيع بالرحلة إلى مكة من كل جانب ولكن اختيار هذا المعنى يضاد وقواعد العربية، وذلك لأن "فإن" لما تأتي كما جاءت في هذه الآية فهي تأتي موجبة لما سبق ومعللة فإن أريد بـ"تزودوا" الزاد المادي لذكرت حكمته بعدها موجبة له ومعللة أي لم أحتج لهذه الرحلة إلى العناية بهذا الزاد؟ ولكن الحكمة التي ذكرت هنا ذكرت لزاد التقوى لا لزاد الرحلة.

ويؤيد هذا المعنى الذي أشرنا إليه، موقع هذا الإرشاد فقد قيل في الفقرة السابقة أن من يريد الحج فعليه أن يجتنب الرفث والفسوق والجدال فإن كان شيء يعلق بهذا المعنى تعلقًا شديدًا فهو أن يتزود المرء التقوى في هذا السبيل مقابل الاجتناب عن تلك الأشياء الممنوع عنها فإن خير زاد في سبيل الله هو التقوى.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿٣٥﴾

أي الهدف النهائي للحج هو التقوى فالزاد الأصلي لهذا الهدف سيكون هي التقوى ولكن لا حرج في أن يتمتع أحد من شيء بهذه الرحلة فالمراد من "فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ" هنا هي الفائدة التجارية وقد استخدمت هذه الكلمة لمثل هذه الفوائد التجارية في القرآن فما يتناول العبد من الفوائد الاقتصادية متقيدًا في حدود الله ومؤديًا حقوقه، يأتي تحت فضل الله.

وقد أشرنا في الآية السالفة إلى أن الاجتماع للحج في الجاهلية قد أصبح نوعًا من الأسواق التجارية الكبرى، الأمر الذي قد أخفى هدف الحج الأصلي فقد أوضح القرآن هنا أن الهدف الأصلي للحج هو العبادة لا التجارة فعليكم أن تزودوا في

هذا السبيل بما يليق بدرجته من التقوى، ولكنه بجانب الاهتمام بهدفة الأصيل فإن يرد أحد بنوع من الفوائد التجارية فلا ينال هذا شيئاً من تلك العبادة وهو جائز له ولا حرج فيه.

وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَنَّاكُمْ: هذا الحكم يتعلق بالبيتوتة بالمزدلفة حين الرجوع عن عرفات وبذكر الله هنا، فقد أرشد بالنسبة لهذا الذكر إلى أن يكون هذا على الطريقة التي هداكم الله إليها وأمركم بها أي في صورة التسبيح والتهليل، والذكر والعبادة فلن يكون على الطريقة التي قد اخترتموها في الجاهلية مثلما نفعل اليوم فنقوم بالإيضاء في كل مكان بمناسبة الأعياد، ونعقد المشروعات للسير والتنزه، ونعقد الأمسيات الشعرية حتى نقوم بعقد جلسات للرقص في بعض المناطق وهكذا كان الناس يشعلون النار في غير موضع بالمزدلفة في الجاهلية وينشدون القصائد ويقصّون القصص ويعقدون جلسات يفتخرون فيها بأنفسهم وآبائهم وقبائلهم. فبالرغم من تلك الخرافات أرشد القرآن إلى التسبيح والتهليل فإن الهدف الأصلي وراء الحضور في تلك الأماكن لم يكن إلا ما أسلفنا ذكره.

وَأَن كُنْتُمْ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ: هذه الفقرة للمنة والإحسان كما جاء في سورة الجمعة "وَأَن كَانُوا مِن قَبْلُ لَمِنَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ" (الآية: 2) والمعنى أن تقدروا ما يوجه إليكم من الإرشادات إلى أحكام وآداب هذه الأماكن وذلك لأنكم قد قررتم هذه الأماكن مواضع للعب واللهو، والواقع أن هذه الأماكن مواضع تتجلى فيها أنوار ربانية للمعرفة والهداية ولكنكم لأجل جهلكم عنها فقد ظننتم هذه المعادن الذهبية معادن الفحم ولا غير.

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٥﴾

وتدل القرينة على أن الخطاب هنا موجه إلى قريش والمعنى أن القيود التي وضعت على الآخرين بالنسبة لمناسك الحج قد وضعت أمثالها عليكم. وعلى هذا فعليكم

أن تذهبوا إلى عرفات فترجعوا منها كما يفعله الآخرون، وقد مسّت الحاجة إلى ذلك الأمر لأن قريشاً لم يكونوا يرون واجباً عليهم أن يزوروا عرفات فكانوا يوجبون عليهم زيارة المزدلفة فحسب زاعمين أنهم يتولون بيت الله ويملكون مفاتيحه فلا يجب عليهم أن يخرجوا عن حدود الحرم وكذا ميّزوا أنفسهم في العبادة فقام القرآن بالقضاء على ميزتهم تلك وجعل كلهم سواسية.

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ ﴿٣١﴾

وبعد الفراغ عن أداء مناسك الحج كان الناس يرغبون في الملاهي والملاعب، كما أسلفناه، وكانوا يعقدون جلسات للأُمسيات الشعرية والتفاخر بينهم لاسيما حين قيامهم بمنى فقد خصّوه بهذه الخرافات فكان الشعراء والخطباء يقدّمون قصائدهم وخطبهم التي كانوا يفتخرون فيها بقبائلهم وأسلافهم وكان يحاول بعضهم أن يسبق الآخر في طلاقة اللسان ونهاية الافتخار فقام القرآن بإصلاح هذه الخرافات وهداهم إلى أن يستبقوا إلى ذكر الله.

فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا: هذه إشارة إلى من كان يغلب قلبه وعقله حبّ الدنيا فكان يرى رأيه في مكان، ويقدم ما كان هو الأولى لديه حتى إنه لو سنع له فرصة عبادة كبرى مثل الحج فكان يدعو فيها لتلبية حاجياته الدنيوية بدلاً من الحسنات في الآخرة فهناك العديد من الناس الذين يحجّون لهدف من أهدافهم الدنيوية فهم يقدّمون طلباتهم المملوءة في قلوبهم وعقولهم حيث يرون أنها مناسبة لها وملائمة بها فلا يرون أن يمزجها شيء من الفوائد الأخروية مخافة أن تعرقل هذه الفوائد آمالهم المرغوب فيها.

وهؤلاء هم الذين حاولوا أن يصيغوا كلّ شيء من الدين في قالب الفوائد الدنيوية، الأمر الذي شوّه صورة الدين، وهؤلاء هم الذين قد حوّلوا عبادة كبرى

مثل الحج لأجل حبهم للدنيا في جاهليتهم كما ذكرنا، قد حوّلوها إلى سوق تجارية وهذا هو الميل الذي يلعب اليوم وراء تحويل الحج إلى مجرد مؤتمر سنوي كبير والحال أن الروح الأصلية في الحج هي الهجرة إلى الله وما يتبعها من الفوائد الدنيوية فهي ضمنية ولا غير.

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٣١﴾
أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٢﴾

هذه إشارة إلى من كان ذهنه مقتصدًا في الدنيا والآخرة كليهما ومن كان يدعو ربه للحسنة في كليهما، وقد جاء ذكر هذه الطائفة بعد الطائفة الأولى للدلالة على أن ما طلبت هذه الطائفة قد أحبه الله وليختر المؤمنون هذه الطريقة. ويبدو من هذا الدعاء أن العبد ينبغي له أن يدعو للخير في هذه الدنيا كما في تلك الآخرة وليترك الفصل عن تلك الحسنة وخيارها عليه فهو يعرف أحسن وأجود من الآخرين أي شيء يكتنم لنا خيرًا حقًا لاسيما أمور الدنيا فلا ينحصر كون شيء منها خيرًا إلا في أن يكون هو الوسيلة لنا في نيل الفلاح في الآخرة ولا يعلم هذا الجانب الإيجابي منه إلا الله فينبغي للعبد أن يترك هذا الأمر لله ولا يقدم مشروعًا من قبله إلا أن يستمر في تعوذه من عذاب جهنم فهذا شيء ليس بهين ففلاح العبد الأكبر أن يعيذه الله من عذاب جهنم.

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا؛ فقال عن الطائفة الأولى التي هي لا تطلب إلا الدنيا: "وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ" ولكنه قال في الطائفة الثانية بأنها ستنال من نصيبها وهو يكون قدر الأصول التي قد جعلها الله لجزاء عباده الصالحين.

وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ: هذه الفقرة تناسب كلتا الجهتين من التهديد والعزاء وقد استخدمها القرآن لكليهما فمن يزعم أن الجزاء في الآخرة شيء مستبعد فيخوض في سيئاته ويرى أن لا يزعج عيشه الرغد في التفكير عن الشيء الذي هو بعيد إلى

هذا الحد فقد وعدّه بهذه الكلمات أن الحساب الذي تستبعده اليوم حينما يحضركَ فسترى أن هذا حدث في يوم أو يومين، بل في صباح أو مساء.

وكذا من يرى أن ما يعده الله وعدًا سيأتي في المستقبل ويرى أن وفائه سيأخذ مدة مديدة فيعزّي أن لا وقت طويلاً في وفاء وعد الله فلما يصل إليك أجرك فستشعر بأنه قد وصل إليه قبل أن تجفّ عرقك.

فيدلّ الموقع على أن هذا ليس للتهديد بل للعزاء ولنلاحظ هنا أنما يهتمّ به في كافة هذه الأمور ذاك الشعور الذي سيمرّ به الإنسان حين يرى جزائه خيراً كان أو شراً فإن كان الشعور حين الجزاء أن الفترة بين العمل وجزائه قد انتهت تماماً فلا يعبا بهذه الفترة فيصحّ أن يضع المجرم جريمته أمامه كما يضع المؤمن جزائه أمامه فلا ينبغي له أن يغترّ بهذه المهلة كما ينبغي لذاك أن لا يفقد الصبر على تأخيرهِ فإن بهمّ أحد هذه الفترة لجهله فليعلم "من مات فقد قامت قيامته" فعندما يغمض المؤمن عينيه للموت تبدأ صور أعماله تتجلى له وكذا يحدث مع الكافر فتبدأ أعماله تتصوّر سيناتها له.

وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَآتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٣٣﴾

فالهدف الذي وردت له كلمات "أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ" بشأن الصيام قد جاءت لنفس الهدف والمراد منها أيام التشريق أي أيام يقيم فيها بمنى. والمعنى هذه أيام معدودات فلتجتمع من خير ذكر الله ما استطعت فلا تحاول أن تهرب منها ظاناً أنها حمل عليك باهض ولو أن قد سمح لمن يريد العود فليرجع الثاني عشر من ذي الحجة وإلا فليحصل على ثواب القيام حتى الثالث عشر لهذا الشهر فيمكن أن يختار كلتا الصورتين إلا لنلاحظ أن لا نتعجل لمجرد ثقل تلك الأيام وصعوبتها بل يفعل ذلك لحاجة ماسة يمرّ بها وقد احتيج إلى هذا التنبيه لأن معظم الحجاج

حين الرجوع من عرفات يعجلون الفراع من مناسك الحج لكي يعودوا إلى مقرهم فوراً، ولو أن هذا أمر فطري ولكن ينبغي أن لا يتنفر ولا يتعجل فإن حدث كذلك فهو خلاف التقوى. وليعلم الناس أنهم سيحضرون لله يوماً ما ولن يمكن لأحد أن يزول مكانه إلا بإذن منه تعالى. وإليه الإشارة في كلمات "وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" فالاجتماع في موسم الحج نوع من التذكير للاجتماع يوم الحشر فلا يغفلوا عن هذا الواقع في صورة هذا المجاز.